تراثنا العلمي القديم

«تابع»

لئن احتج المجددون الذين يرمون الى نبذ القديم بان اوربا لم تتحرر من قيود الهمجية والخمول الا بمحاربتها للقديم وربما يتبادر هذا الى الذهن في أول وهلة قبل التعمق في المسألة واعطائها حظها من التمحيص فالحقيقة انها احتفظت بمتروكها النافع اشد الاحتفاظ وأبرزته في صور أنيقة تجذب الانظار ونمته فجعلته من مقومات مدنيتها وأضافته لما اقتطفت من اليونان والشرق، فان اشادة الغربيين بشعرائهم وادبائهم وعلمائهم الاقدمين في كل مناسبة والتعليق على كتبهم والتأليف في تراجمهم وآرائهم قد تعدى حد الاطناب بكثير، نعم أهملوا من ذلك الزائف والجامد العديم الحيوية فهم لم ينسلخوا عن استعدادهم وطبيعتهم الفطرية كما حاولنا أن نفعل ولم يقفوا موقفنا الحالي بالافراط في التقليد عندما أخذوا باسباب النهوض بل اقتنوا من كل شيء أحسنه وأفيده وتزودوا بكل ما أعوزهم للتقدم كذلك ينبغي أن نفعل بخزانتنا العلمية الحافلة بالمؤلفات العديدة المتنوعة ونعمل على تنمية فننا الفاخر وهندستنا ونحتنا الرفيع، فحليق بنا أن لا ننبذ تلك الكنوز الثمينة التي ائتمننا عليها اجدادنا الكرام وما تلك النزعات التي يقول بها اولئك الذين يدعون أنهم حملة التجديد الا لغو باطل ومن الغريب يحسبون أنهم ساعون في تنوير العقول وترقية الشعوب بما ينشرون من الآراء الباطلة ويبثون من الافكار الواهية الدالة على ضعف في الادراك وعدم دقة في البحث في المظاهر التي تؤثر على عقليتهم فتجذبهم وتنكبهم عن جادة الصواب فيستسلمون للتقليد غافلين عما هو أولى بالاعتناء والتحفظ وقد استمرت هاته الفكرة منتصرة بصلابة مذهبها ولو اتيح لها أن تمتد بعيداً لكان للشرق الاسلامي مستقبل مظلم يوذن بخسران مبين لولا أن رجع قادة الرأي الى رشدهم بعد ما تبين لهم الغلط فانتجت القرائح كتباً باسلوب حديث تندفق بمعان سامية واستفاضت في الحديث عن بعض عظمائنا وما ابتكروا من نظريات علمية وحللت ما تساموا فيه من الادب الرائع وأبدعوا من الفن الرائق ما يبعث على النشاط والارتياح والتشجيع لاستئناف العمل بالبحث في زوايا الخزانة العربية وقد اعتنى بطبع الكتب القديمة وتحريرها أشد اعتناء في حين لا يزال يوجد في الشرق أقلية تندد بهذا الاتجاه ولا ترى لها مثلا أعلى الا في الانتاج الاروبي على أن المدنية الحديثة نفسها لازالت لم تتمم مهمتها فبالرغم عن كونها رقت العلوم والمعارف وأحدثت لنا تسهيلات في الحياة فانها صدمت بمشكلات عويصة حارت في حلها ولا ندري ما عسى أن يحدث في المستقبل، هل ستعجز عن معالجة هذا الاختلال في التوازن البادي لنا والذي يتراءى كاشباح مخيفة وهياكل مريعة فيفضي ذلك حتما الى خراب العالم فيصبح كل ما قامت به من الاعمال الجليلة في خدمة الحكمة البشرية هباء منثوراً أم ستتجه حول الاصلاح اتجاهاً حسنا. لهذا فلا يمكننا أن نحكم بصلاحها أو فسادها الحكم الصارم الذي سيسجل مدى الدهر اذ أننا نجهل الدور الذي سيمثله العلم والعقول الناضجة أمام هذه المشاكل.

يكدح ويتعب في الخارج والمرأة تكدح وتتعب في الداخل وبهذا الاشتراك والتعاون تكون المساواة لا في مشابهته في العمل.

وهذا النظام يجعل المرأة تكتفي بضرورة التعليم الثانوي أما العالي فانه غير ضروري وكم من رجال يستغنون عنه فإذا الزمت الفتاة نفسها الاكتفاء بهذا النصيب في سبيل سعادة الاسرة فإنها لا تنال الا اخيراً من عملها، فبالتعليم الثانوي تكون حصلت على ثقافة راقية وعلم وعرفان غير قليل وابواب التعليم بالمطالعة والتدرب على الكتابة لا تزال مفتوحة امامها فيمكنها في الوقت نفسه ان تؤدي واجبها النسوي وتقوم به أحسن قيام وتنمي معلوماتها بالطرق المعلومة.

على هذا المنهاج أتمنى أن تتربى الفتاة المغربية وأملي وطيد في أن المغاربة سينظرون الى الفتاة نظرة البصير ويسلكون بفتاتهم أقوم سبيل ولا بد من أنها ستنال يوماً ما حظاً من العلم وانما أرجو ان لا يضلوا بها الطريق والسلام.

«الفتاة»

هذا ولا يستغرب من فئة المجددين هذا التمرد والتعنت ما داموا متشبعين بالثقافة الاروبية متسربة مع خلايا العروق فتجردوا من مواهبهم الطبيعية ومن البئة والوسط فعاموا عن الغرب اكثر مما جهلوا عن اجدادهم المصلحين وما تركوا من قيم المعرفة فذهبوا يتطفلون على الغير فكان حليفهم الفشل ، وياليتهم اردفوا ذلك باقتطاف الازهار المتنوعة والرياحين اليانعة من حقول السلف الصالح فتمموا النقص ولأموا الثلمة وبديهي أنه لا يضرنا تعصب هؤلاء كلما تمادينا في السعي لنسير في السبيل القويم الذي يقودنا الى الانتاج والابتكار وايجاد نبغاء ومفكرين وادباء مصلحين يقومون بمهمتهم في الحياة العلمية فنملك ناصية مجدنا ونالد عزنا الذي نريد استرجاعه والسمو به الى أوج العلى .

ومهما يكن من غلط أنصار التجديد فاعترافاً بالحقيقة وانصافاً للصواب ان لهم بعض المبررات تخفف عنهم عبء المسئولية تتضح لكل من فكر برهة وأمعن النظر وذلك أنهم لما شاهدوا بعض الشيوخ وفريقاً من علماء الشرق الاجلاء يبثون افكاراً مخالفة لروح الدين ويضيقون النطاق الذي وسعه الاسلام ولم يأتوا الا بالجمود ولم يفهموا التعاليم الدينية كما هي في عالم الحقيقة بل أولوها بما سولت لهم أنفسهم من ذلك أنهم يدعون أنه لا يجوز أن يدرس من ضروب الفنون الا قواعد الدين فقط ويجب الاقتصار عليها وزعموا أن من خالف هذا فقد أتى بهتاناً واثماً عظيما .

لا غرو أنه لما رأى الشباب هذه الآراء العقيمة احتقروا اسلافهم ونبذوا القديم وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فزينت به خزائن الاقطار الاوروبية وديجت بنفائس كتبهم لجهلهم قيمتها وظنوا ـ وكان ظناً خاطئاً ـ ان الاسلام ليس بدين العلم وأن الاقدمين كانوا كاصحاب هذه المذاهب أو يقاربونهم ولو تراجعوا قليلا الى الوراء لعلموا أن هؤلاء لا يمثلون الا آخر حلقة من حلقات المدنية في الاسلام وهي : الهرم ، والتأخر والفشل .

والحق الصراح ان من يستعرض القرآن الكريم والاحاديث الصحيحة المروية عن الثقات يجدهما حافلين باوامر ونواه تؤذن بالرقي والحضارة لمن جعلها قدوة وعمل بمقتضاها بل الاسلام هو لب المدنية الحقة ولسنا بصدد نقل ذلك لاشتهاره لدى الجميع وعلى القارئ ان ود استيعاب الفكرة ان يراجع كتب رشيد رضا المملوءة بتعاليم جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ويتصفح كتب فريد وجدي فان في هذه المؤلفات فصولا ممتعة وضحت المسألة باسهاب تعزز رأينا وكذلك لغيرهم من المصلحين القدماء الذين انبلجت لهم الحقائق فبينوا الاسس التي بها اهتدى من قبلنا من المسلمين فكانوا قادة لغيرهم ونبراساً اضاء في ربوع الشرق .

والاجدر بنا ونحن بقايا من تلك السلالة الطاهرة أن نجعل من مبادئ نهضتنا احياء التراث النافع ونعمل في هذا الميدان الخصب فنقوي مواطن ضعفنا ونأتي بما فيه الخير العميم لمستقبلنا ، وهذا لا يمنعنا من أن نقتبس من ثمرات مدنية الغرب ما لا استغناء عنه مما ابدعوا فيه وأجادوا في الابداع فنكون احتفظنا بروح ثقافتنا الاسلامية وأضفنا لذلك ما هو صالح للادخار من مقومات المرافق الحيوية فيضمن لنا النجاح في سعينا الى الرقي .

ونعجب كل العجب حين نرى الاجانب يوقفون حياتهم على البحث في ثروتنا العلمية فيعنون بنشر كتب قديمة ربما كنا نجهل بعضها ويستفيضون بالابحاث القيمة والمعلومات النادرة حول مفكري الاسلام وعظمائه لا نعلم منها الا النزر اليسير ، وعار علينا أن نشاهد هؤلاء المستشرقين يقومون بهذه المهمة التي كان لزاماً علينا القيام بها على أن منهم النزيه في آرائه ومنهم المشوه للحقيقة فيصورها في أحط صور البشاعة ونحن عن كل ذلك بين نائم أو غافل ، واذا كانت تترآى لنا بعض البوادر تنبئ بان الشرقيين متجهون الى ناحية مكنون ذخائرهم الثمينة فينشرح الفؤاد وتنجلي بعض الغمة فان ذلك يعوزه توحيد الجهود ومضاعفة العمل لما يتطلبه منا الجد والمثابرة فلنا مجاهل ولنا كنوز لم نحط بها خبرا ، فلنصور أنفسنا للعالم كما نحن بدون تشويه ولا اطراء فنبين له عن مجهودات اجدادنا الافذاذ الذين أفنوا أنفسهم في نفع الانسانية وقاموا بما وجب عليهم وبما كان في حيز امكانهم فتقدموا تقدماً باهراً في جميع العلوم والفنون .

وليس من يجمع من هنا وهناك ويدعي أنه الف يخال نفسه قام بمجهود عظيم فربما كان ذلك تشويهاً لمؤلفات الاقدمين أو اضاعة للوقت في النقل وتنسيف المنقول مع بعضه بدون أدنى فائدة ترجى من ذلك ولو أن هذه الشرذمة من المؤلفين اقتصرت على نشر المؤلفات كما هي لكان ذلك عملا يقدر ، ونعثر عن أقوام آخرين يعمدون الى شخصية بارزة في التاريخ الاسلامي فيذكرون وقت بروزها وانقضائها مع اكتفائهم ببيان بعض الاعمال والنوادر التافهة